العرب
الأحد 2020/07/12
السنة 43 العدد 11759

# لا تنسوا المثقفين في «الاتفاق الجديد»

أحداث متسارعة يشهدها العالم اليوم، خفت على إثرها كل ما هو ثقافي لصالح الاقتصاد. فالاقتصاد بات رهان الدول والأفراد والمؤسسات، الجميع في سباق محموم نحو الكسب والربح. لكن إغفال الثقافة ستكون له عواقبه الوخيمة، إذْ يذكرنا حال اليوم بحال العالم عقب أزمة الثلاثينات، حيث طغى الاقتصاد على الثقافة وكل متطلبات الحياة الأخرى، ما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية. فإلى ماذا ستؤدي أحداث اليوم؟

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي
مقيم في لندن

يتحدث الغرب الآن عن استيحاء مشروع الرئيس الأميركي الراحل فرانكلين روزفلت في ثلاثينات القرن العشرين والمسمى "الاتفاق الجديد" لإنقاذ العالم من الهاوية الاقتصادية والنفسية التي يعيش فيها اليوم.

وباء كورونا بدد الآمال في التعافي من الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الانهيار المالي عام 2008 والأزمة السياسية – الأخلاقية التي نجمت عن هجمات سبتمبر 2001، ثم غزو العراق عام 2003، وإطلاق غول الإرهاب كما لم يحدث من قبل.

روزفلت تصدى لـ"الكساد الكبير" بالاستثمار متعدد الأوجه في رفع عبء البطالة والفقر عن الناس، واستعادة حركة الاقتصاد من قبضة الكساد، وإصلاح النظام المالي لمنع تكرار الكارثة.

كان تغير التوجه السياسي للولايات المتحدة، من التيار الجمهوري المحافظ إلى الانفتاح نحو التحالف الديمقراطي، جزءا مكملا أو نتيجة تكميلية للمبادرة. مبادرة روزفلت أنقذت الولايات المتحدة، لكنها، كما نعرف، تأخرت في إنقاذ أوروبا وانتهينا باندلاع الحرب العالمية الثانية.

ليس الهدف هنا الاسترجاع التاريخي. لكن الحماسة التي يبديها السياسيون اليوم لضخ الأموال في الاقتصاد تحتاج في بعض منها إلى إعادة توجيه. نعم إن العالم يحتاج أن يعالج حالة الكساد وأن تضخ الدول المال في مفاصل قطاعات الأعمال، بل وفي جيوب الناس، ولكن بالحكم على تجارب سابقة فإن هذا لن يكفي. ثمة حاجة حقيقية إلى تكييف نفسي وثقافي وفكري يتناسب مع حجم الهزات التي تعرض لها الناس. ضخ للثقة وضخ للمال سوية في أبعاد إضافية وحيوية. الحديث عن الثقافة ودعمها أساسي وجوهري.

سحبت الدول والمؤسسات، وخصوصا في عالمنا العربي، أيديها من دعم المشاريع الثقافية. يجب ألا نتوهم ونقول إن المشاريع الإعلامية هي مشاريع ثقافية. المشاريع الإعلامية بوجهين: سياسي وترفيهي. السياسي يخدم توجهات البلد السياسية ويدعم وجهات نظر قيادتها. إذا كان موضوعيا، فيحقق غايات مهمة. وإذا كان دعائيا، فربما من دونه أفضل. مشروع شركة ترويج وعلاقات عامة قد يكون أكثر فائدة.

> الإنتاج السينمائي والإنتاج الدرامي، الموجه للتلفزيون أو للبث التدفقي، هما الأكثر سخونة في المشاريع الصاعدة اليوم

المشروع الإعلامي الترفيهي مهمّ. الترفيه واحدة من أكبر صناعات العالم اليوم. الإنتاج السينمائي صناعة بعشرات المليارات. الإنتاج الدرامي، سواء الموجه للتلفزيون أو للفضائيات أو للبث التدفقي، هو الأكثر سخونة في المشاريع الصاعدة اليوم. الحفلات الغنائية والمهرجانات من علامات المدن الفارقة، يقصدها الناس للترويح عن أنفسهم. لكنه يبقى ترفيها. في كثير من أوجهه ينهل من النتاج الثقافي، من أدب وشعر ومسرح، لكن لا أحد يأخذه على محمل الجد كعنصر مؤثر في المسيرة الثقافية القادرة على رفع مستوى الحس النقدي والفكري لدى الناس.

لا يوجد إطار موحد للاستثمار في الحياة الثقافية لدى الدول. هناك قواسم مشتركة بالطبع، مثل دعم الفنون التشكيلية والمسرحية ورعاية الأدباء والشعراء. لكن التغير الكبير الذي يشهده العصر، وحالة الالتباس الفكرية السائدة مع صعود المشاريع الدينية، وانكشاف عدد كبير من المثقفين والاستنتاج بأنهم في أفضل الأحوال مجرد ناقلين عن الفكر الغربي أو مترجمين لنصوص بعيدة عن الواقع، كل هذه العوامل تحتاج إلى وقفة تأملية من قبل الرعاة التقليديين للثقافة، سواء الحكومات أو المؤسسات: في عالم تشح فيه الموارد، كيف ينبغي توجيه الدعم للحركة الثقافية ولمن على حساب من؟

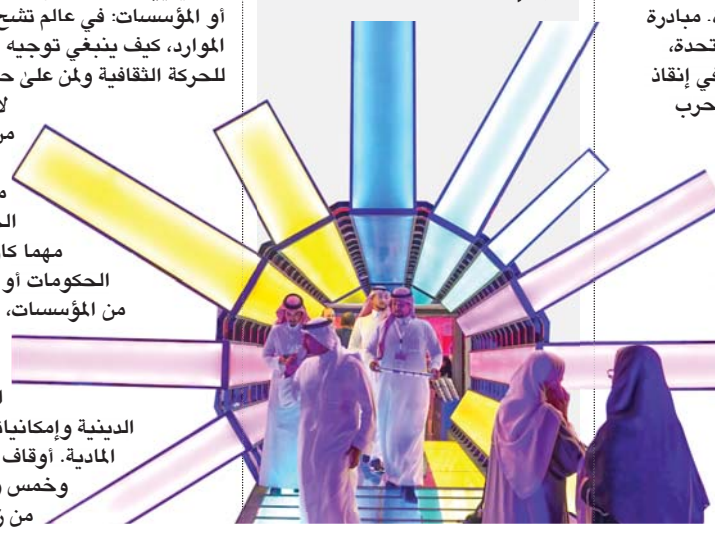

لا بد من قبول مساحة من الخسائر. مهما كان كرم الحكومات أو المتبرعين من المؤسسات، لا يمكن أن يجاري قدرات المؤسسات الدينية وإمكانياتها المادية. أوقاف وتبرعات وخمس وعائدات من زيارات العتبات المقدسة واستثمارات دول في التدين السياسي، كلها تصب في صالح المشروع الديني المسالم أو العنيف، العام أو الطائفي.

لن يتمكن أيّ إنفاق على الثقافة من المجاراة. هنا التعويل سيكون على النوعية. طالما لا تستطيع أن تبسط فرشا واسعا ليضم كل مناحي الثقافة، فإن الخيار البديل هو الانتقائية والتركيز على بعض المشاريع.

> ثمة حاجة حقيقية إلى تكييف نفسي وثقافي وفكري يتناسب مع حجم الهزات التي تعرض لها الناس اليوم

هناك قائمة الأساسيات طبعا من مجمعات ثقافية ومنتديات. لكن شهدنا كيف تمّ قطع الدعم عن المنابر الثقافية من مجلات ومهرجانات وندوات. استمر الدعم للبعض لأن القائمين عليها رفضوا الاستسلام، وحاربوا لكي يستمروا. لكن الأغلبية ذوت واختفت وأصبحت في كتب التاريخ. حتى الكتّاب ممن كانوا يعملون في وظائف أخرى ويوفّرون المال لطباعة كتبهم أو دفع أجرة القاعات التي تستضيف لقاءاتهم، يئسوا أمام الإهمال الحكومي والشعبي أو التحدي الديني. في النهاية، المثقف فرد وأعزل، وهو إنسان لديه قدرة على الاحتمال والمطاولة لزمن قبل أن يستسلم للواقع.

مثلما شهدنا الخلل في التركيز على مناح اقتصادية وسياسية حياتية وإهمال الثقافة والفكر في الثلاثينات وقد قاد إلى كارثة الحرب العالمية، نقول إن عالم اليوم لا يختلف كثيرا. الغرب متعجل في تحريك عجلة الاقتصاد، ويضخ الأموال والمنح وكثيرون يعقدون الآمال بأن لا ينسى الثقافة. لكن هل عالمنا العربي، وهو أساسا غارق في الحروب ولا يحتاج إلى من يشعلها، يعتبر أن استثناء الثقافة من أيّ مشروع إنقاذي، "اتفاق جديد" أو "عقد جديد"، مقبول؟

نهاية المثقف فردا وأعزل (لوحة للفنان بسيم الريس)

# سؤال ضروري: ماذا سيحدث بعد ألفي عام

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

فيما نحن نخيط شوارع العاصمة تونس إلى أفكارنا وذكرياتنا، طرحت سؤالا على صديقي: كيف تتخيل حال هذه البناية بعد ألفي عام؟ الحقيقة الارتباك كان نصف الإجابة، أما نصفها الآخر فكان متأرجحا بين عدم الخراب، وعدم النهاية.

السؤال كان مشوقا، وكنت أخرجه باستمرار، واكتشفت من خلاله، أو أنا تأكدت، أن لا أحد يملك تصورا لعشرين سنة إلى الأمام، مع إمكانية وجوده فيها، فما بالك بألفي عام وهو حينها في العدم.

من المعروف أن كل جيل يأتي يعتقد أنه الأفضل، وأنه نهاية تطور أسلافه وأجداده، ولا استمرار بعده. وكنت كتبت سابقا في هذا الشأن مفسرا إياه على أنه غرور، وأضيف لمسألة الغرور الضعف والانهزام.

استفاقت دول العالم على ضرورة التخطيط مسبقا لعقود إلى الأمام، تخطيط يشمل الاقتصاد والفكر والثقافة والبيئة وبشكل خاص التعليم الذي يضمن استمرارية التغيير والتطور الإيجابي. وتأثر الأفراد بهذا التمشي، فصار كل منهم يقيم الخطوط العريضة لحياته في المستقبل، ويؤسس لها من خلال حاضره، مستشرفا حاله.

لكن هناك من يكتفي بالخيال وتظل خططه ثابتة صلبة لا مرونة لها في التعامل مع رياح التغيرات والطوارئ. وهناك من يكابد الواقع ويعدل خططه ورؤاه وأفكاره ويحين طريقه ويغيره إن لزم الأمر لتحقيق السعادة.

في تونس مثلا سواء على مستوى أجهزة الدولة أو الأحزاب السياسية أو حتى الأفراد المبدعين أو الفاعلين أو غيرهم من الأشخاص والهياكل والمنظمات إلخ، الاستشراف يكاد يكون مجرد حبر على ورق، وكلام على عواهنه، رؤوس أقلام، تفشل في التحول من كلمات برّاقة وجاهزة إلى بداية للتغيير.

فكما يقول الكاتب البريطاني روبرت أشتون إنه "ما من شيء يظل على حاله لفترة طويلة، إننا محاطون بالتغيير، لكن يمكن لهذا أن يكون أمرا محفزا أو مهددا، وذلك اعتمادا على رؤيتك لهذا التغيير".

أعتقد أن الكثيرين يخافون من التغيير، من تغيير ديكور البيت أو عادات الأكل أو الأماكن، وبدرجة أعلى من تغيير الأفكار والرؤى والذائقة، إننا محكومون بالتعود، الذي يحول حتى ظلام الحي المهشمة فوانيسه بحجارة الأطفال إلى حنين.

كيف أغير وأنا غارق في الحنين، آلة حنين ثقيلة على ظهر كل واحد منا، تلتهم تاريخه الشخصي وتحوله إلى صور تدر العاطفة ويقشعر لها القلب وقد تسبب البكاء، كل ذاك في التفاتة دائمة إلى الوراء، وخوف من القادم.

أما على مستوى الدولة والسياسيين والمنظمات وغيرها من الأجهزة التي تقود قاطرة الدولة، فإن استشرافها لا يتجاوز الحيني، و"إنجازاتها" يجب أن تكون مرئية هنا والآن، لذا تعتمد التعتيم أو التضخيم الإعلاميين، وعلى خطابات أرقام مغلوطة، أو معلومات متلاعب بها، ولكن في الأفق القريب قبل البعيد، لا أثر لفعل تغيير حقيقي، عدا التراجع المتسارع لكيان الدولة وانتشار الفقر والبطالة والجهل والعنف وغيرها.

لماذا نفشل في التغيير أفرادا ومؤسسات؟ في المستوى الخاص والعام؟ ربما لأننا لا نبدؤه من الداخل. مع نهاية نظام الرئيس الحبيب بورقيبة ومجيء نظام الرئيس زين العابدين بن علي، أوهم النظام الجديد التونسيين بأنه جاء للتغيير، وكانت كلمة "التغيير" شعار الدولة، كلمة غلفتها بروباغندا كبرى، ولم يتحقق فعلا التغيير المنشود.

قد يحتج البعض بأن نظام بن علي له إنجازات وحقق بعض التغيير في مستوى حياة التونسيين، وهذا صحيح، لكن التغيير الحقيقي هو ما تتحكم فيه أنت لا ما يدفعك إليه العالم وتقلبات الزمن والجغرافيا والنمو السكاني. لذا بقيت تغييرات نظام بن علي فضفاضة بدليل سقوطها بسقوط نظامه.

التجدد يبدأ من الداخل (لوحة للفنانة سارة شمة)

ما حدث بعد ثورة يناير 2011 في تونس، وصعود الإخوان، الحركة الإسلامية الأصولية، مهما حاولت لبس الأقنعة، ومع إقحام هؤلاء البلاد في صراعات هووية زائفة وفي دوامة عنف دينية، وتقسيم الناس بين المؤمن والكافر، تراجع حلم التغيير، وصار الحلم المحافظة على المكتسبات الحضارية السابقة.

لقياس قدرتنا ورغبتنا في التغيير يمكننا النظر إلى مسألة الأمن الغذائي والمحافظة على البيئة، أي مكتسبات تحققت فيهما، وسنقف على حجم الكارثة، حيث التدهور خطير للغاية في هذين المجالين.

التغيير لا يحدث كما بينا إلا من الداخل، إنه يبدأ من تغيير القناعات الراسخة والأفكار البالية، وبالتالي سينعكس على الخارج، ولذا فإن أي تغيير يجب أن يمر بمستويين، الأول ثقافي، والثاني تعليمي.

الثقافة لا تقف عند الفنون والآداب والتظاهرات، إنها نمط حياة، وتغييره أو تجديده تساهم فيه كل عناصر الثقافة، يمكن لفيلم أن يعطيك فكرة جديدة، يمكن لرواية أن تغير رؤيتك، يمكن لأغنية أو قصيدة أن تغير مزاجك، إلخ، حيث الثقافة تغيير متين على مستويي الوعي والعاطفة.

أما التعليم فهو البوابة الكبرى لخلق جيل قادر على التفكير الحر والنقد وقادر بالتالي على الإدراك المتجدد.

كلا التغييرين للأسف بعيدا المنال في تونس، حيث الجميع يريد الحفاظ على الراهن، إذا كان له فيه مصلحة، منصب أو مردود مادي أو غيره، وهناك شق آخر مناد بالتغيير بينما هو في عمقه يريد أن يصل إلى مصلحة ما، وبدليل أن أغلب المنادين بالتغيير ما إن يحققوا مكسبا حتى يستكينوا، وهناك طيف آخر من الأصوليين ضد المستقبل وضد كل تغيير هدفه المستقبل، بل يسعى إلى العودة إلى قرون خلت.

> الكثيرون يخافون من التغيير؛ إنهم محكومون بالتعود الذي يحول حتى ظلام الحي المهشمة فوانيسه بالحجارة إلى حنين

إذن لنكن أكثر مرونة، أكثر إيمانا بالزمن والجغرافيا، أكثر وعيا وجدية، من صنعوا التاريخ سابقا لم يكونوا أكثر ذكاء وفطنة أو في ظروف أفضل، التاريخ يصنع بالوعي والجهد، لا بالأحلام، ويبقى التغيير ممكنا دائما وفي كل وقت، إنه فعل متجدد مستمر ومتدفق كالزمن دون توقف. ولعل ما فرضته أزمة كورونا الأخيرة خير دليل على ضرورة التغيير والتجدد والاستشراف من خلال العلم والفن، العقل والمشاعر.